

المحاضرة (١٨)

مظاهر التجديد في الشكل

مضت جماعة أبولو في طريق التجديد الشعري أسوة بما فعلته جماعة الديوان. ولقد رأينا كيف عمق شعراء الجماعة، مضمون القصيدة العربية الحديثة، وأولوها عنايتهم الفائقة، خصوصاً في اتجاهاتهم العاطفية والتأملية والوصفية. ولقد كان حصيلة هذا كله، تجديد شكل القصيدة كما هو الحال في مضمونها.

وأول مظاهر هذا التجديد كان في تطويع اللفظة والعبارة، وفي صياغتها وفقاً لعمق تجاربهم التي لم تتسع لها اللغة المباشرة. لذلك سعدوا إلى ابتكار الالفاظ الموحية والصور الظليلة، التي تختلف في دلالاتها عن الدلالات السابقة.

وقد تميزت هذه الالفاظ بالرشاقة والحيوية، فإذا بالقصيدة (تحتشد بالاطياف والظلال والسكون المشمس والعطر المفضض والشفق السحري، والليل الابيض والنور الهادئ والخواطر المذعورة. كما رأينا في قصائدهم الكثير من الالفاظ الاعجمية).

وعلى الرغم من أن شعراء أبولو سبقوا في مجال البحور، إلا إنهم مضوا وراء من سبقوهم، توسيعاً لظواهر التجديد في العروض، حتى صارت تشكل في شعرهم ظاهرة وفي هذا المجال تشير إلى مزجهم البحور المختلفة في القصيدة غرار المرشحات. ويقف أبو شادي في مقدمة الذين جددوا في بحور القصيدة، سواء في وزنها أو قافيتها أو حتى في طريقة كتابتها.

وتقنن في استعمال النفايع، إذ استخدم في قصائده تفعيله واحدة في الشطر الاول ومثلها في الشطر الثاني ثم يبني القصيدة كلها على هذا الوزن، كقوله على سبيل المثال:

يا أمل يا أمل

يا هوى من عمل

يا حلّى للبطل

يا قوي في الجلل... الخ القصيدة

وقد بنى جماعة أبولو بعض قصائدهم من بحور مختلفة على طريق الشعر الحر، وتخلو

في هذه القصائد عن القافية الرتيبة، وتقننوا في ترتيب النفايع.

وللشاعر خليل شيبوب محاولات في هذا الترتيب، ومثلها لأبي شادي.

أما أبو القاسم الشابي، فقد نظم قصيدته المشهورة التي يقول فيها:

واسـكنـي يـا شـجـون

وزمـان الجـون

اسـكـتـي يـا جـراح

مـات عـهـد النـواح

على غرار الموشحات.

ولابراهيم ناجي محاولات مماثلة للقصيدة الموشحة.

أما الشعر المرسل، الذي سبق إليه شعراء جماعة الديوان، فقد سعى جماعة أبولو إلى النظم فيه وخاصة احمد زكي ابو شادي.

ولقد اندفع هؤلاء الشعراء في طريق تجديد عروض القصيدة وقافيتها، أكثر ممن سبقوهم، حتى وصلوا إلى حد التخلي عنهما، لينتظم لهم ما أسموه (بالشعر المنثور).

ونحن وإن كنا نقر هذه المحاولات في باب التجديد، إلا أننا نرى أن هذا اللون من البناء لم يمثل لديهم أصالة، بقدر ما كان يحقق جرياً وراء محاولات الشعراء الأوربيين، لأن (النثر الفني) يمكن أن يقوم مقام هذا الذي أسموه (بالشعر المنثور) ولكن رغم هذا، فإن محاولاتهم في هذا الميدان قد سجلت لهم سبق على غيرهم، أو أنها أصبحت ظاهرة فنية في شكل القصيدة عندهم.

على أن هذا التجديد الشكلي في شعرهم وأن شكل ظاهرة فنية، إلا أنه لم يصل في مستواه الفني، كما وصل في أسلوبهم الشعري. وأعني به (القصص الشعري و(الشعر التمثيلي)، فقد نظم كثيراً منهم قصصاً شعرياً يرتفع في مستواه الفني إلى درجة محمودة.

ومن هؤلاء عثمان حلمي في (قصة البخت النائم) واحمد زكي ابو شادي في (دنيال فيجب الاسود) ومختار الوكيل في (الدخيل المعتدي) وعامر البحيري في (ظلامه السد).

أما في مجال الشعر التمثيلي، فقد ترك شعراء أبولو أكثر من نموذج، من ذلك (حديث الآلهة) لمحمد سعيد السحراوي. و(عادة المحيط) لعبد الغني الكتبي. و(موجان) لصالح جودة. وترجم عامر بحيري مشهداً من مسرحية (ماكبت) لشكسبير.

وهذه النماذج من القصص الشعري والشعر التمثيلي، ونماذجهم في كتابة القصيدة الحرة والمرسلة والمزدوجة والمنثورة، هي التي سجلت لهم مواقف ريادية في مجال تجديد القصيدة الحديثة. صحيح أن معظم هذه النماذج قد سبقوا إليها، إلا أن تلك المحاولات السابقة كانت فردية، أو أنها كانت قليلة بحيث لم تشكل ظاهرة فنية.

وهذا يدل على أن مساعيهم إلى التجديد في شكل القصيدة، لم تكن أقل من محاولاتهم في تجديد مضمونها. لذلك عد شعراء ابولو من أشد الشعراء المحدثين تحقيقاً للشكل الجديدة في القصيدة العربية الحديثة وبنائها.

وليس هذا كل شيء في محاولات الجماعة، فقد راح احمد زكي أبو شادي يجري حظه في كتابه الاوبريت، فكتب منها، اربعاً، هي (إحسان) و(اردشير وحياة النفوس) و(الزباء) و(الآلهة) وقد استمد مادتها من التاريخ، فيما عدا (الآلهة) فهي أوبرا رمزية. وأخيراً، لا بد أن يسجل لجماعة أبولو عنايتهم الفائقة بتحقيق الوحدة العضوية.

وصحيح أن هذه الظاهرة التي نعتقد أنها من اعظم الظواهر الفنية التي حققها الشعر الحديث قد سبق إليها جماعة الديوان و خليل مطران، إلا إنها لم تصبح ظاهرة متميزة تمتلك العمق والنضج والتعميم المتكامل، إلا لدى شعراء هذه الجماعة ، على الرغم من أن العقاد هو اعظم من نظر لها وقعد مفهومها.

وقد حققت هذه الوحدة في قصائد شعراء أبولو بناءً داخلياً، تكتمل فيه دقائق هذه الوحدة ومتطلباتها. (وفي هذا الاطار الفني الجميل استطاع شعراء أبولو أن يفرغوا أفكارهم الجديدة، ويسكبوا خواطهم وتأملاتهم في الحياة، فتوافر لشعرهم التجديد والتحرر البياني، وسرى في داخل هذا الاطار تيار من الأفكار والصور الشعرية الخلابية، ولم تعد التفعيلة أو البيت، الوحدة التي يبني منها الشاعر قصيدته، بل صارت الصورة الحية المتكاملة، التي يبني منها الشاعر عمله الفني).

ولعل في ما تركه الشاعر محمد عبد المعطي الهمشري في مطولة (شاطئ الاعراف) وما تركه الشاعر علي محمود طه في مطولة (ميلاد شاعر) خير دليل على وحدة العمل الفني المتكامل فكلتا المطولتين عمل شعري عظيم يدل على قدرة الشاعرين في توفير العديد من المظاهر الفنية الجديدة التي لم يألّفها الشعر في التيار الكلاسيكي، إذ حقق الشاعر في عملهما ، الوحدة العضوية، والبناء الفني الدقيق، والتعبير الرمزي الساحر، والتصوير الفني الآخاذ. وتوفير هذه الادوات في قصيدة طويلة تمتلك أسلوباً جديداً وشكلاً فنياً جديداً، ونمطاً جديداً في البناء والتركيب، يدل على مهارة الشاعر وقدرته الفنية، وطول نفسه، وعمق تجربته، ووعيه العميق لعمله الفني المتكامل، وهو ما يشهد لهذين الشاعرين ولغيرهما ممن ينتسب لهذه الجماعة، بالشاعرية المقتدرة، والريادة الجريئة التي اسهمت في تطور القصيدة العربية الحديثة.

مصادر: